

أمثلة من الترجمة

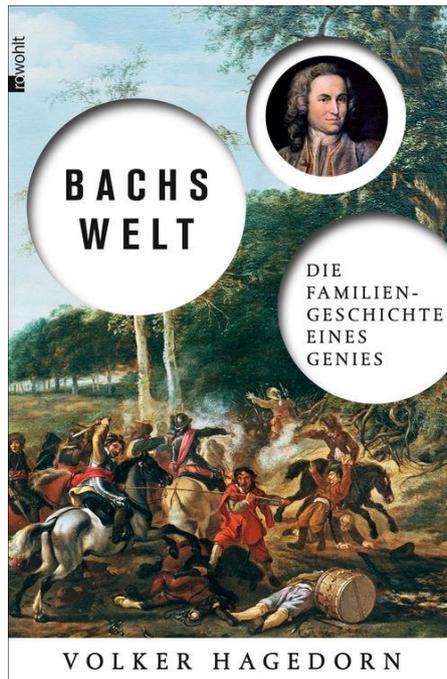
Volker Hagedorn
Bachs Welt. Die Familiengeschichte eines Genies

Rowohlt Verlag, Reinbek bei Hamburg 2016
ISBN 978-3-498-02817-6

صفحات 51-66

فولكر هاجيدورن
عالم باخ. تاريخ عائلة أحد العباقرة.

ترجمة أسامة الشحاني



الفصل الثاني: الحرب

عن موسيقي صار "ضابطاً" وآخر اختفى، وعن تدمير تورينغن طوال ثلاثين سنة.

عن الألمانية: أسامة الشحماني

الصفائحُ القاريةُ تشابكتُ، وداخلَ بعضها البعض، ثم تقلبت بالآلاف في تورينغن القريبة من خط الاستواء. كان ذلك قبل 360 مليون سنة. وبعد ذلك بـ 90 مليون سنة هبطت أرض المنطقة، براكينَ تفورُ، بحرُ استوائي يشقُ طريقه، فيما تتفجّرُ حممٌ في لَجَّتِه، وتترسّبُ داخله معادنٌ من حديدٍ ونحاسٍ وفضةٍ ومنغنيزٍ ويورانيومٍ وذهب، معادنٌ تقادمتُ عليها طبقاتٌ ركاميةٌ منذُ ملايين الأعوام. مرةً أخرى ترتفعُ قشرةُ الأرضِ بعدها، وعلى امتدادِ 65 مليون سنة وحتى يومنا هذا بدأ تشكل غابة تورينغن، وهو وقتٌ لم يكنُ للإنسانِ وجودٌ فيه، ولا للديناصورات، حيثُ اختفى أثرها منذ وقتٍ سحيق. ما سيكون فيما بعد أوروبا تحرّكٌ من خطِ الاستواء باتجاه الشمال. الزمنُ يمضي بسرعةٍ كبيرة، وما هي إلا أربعة آلاف سنة حتى الآن، حتى ظهر فيها المستوطنون الأول تحت ظلال جبلٍ أخضر، ولم يكن أحدٌ منهم ليعرفَ أنه ليس سوى بركانٍ منطفيٍ يرتفعُ عن مستوى سطحِ البحرِ بما يناهزُ ألفَ متر. وما هو إلا وقتٌ قليلٌ يمرُّ ليكتشفوا ما تحت أقدامهم وما في في المنحدرات التي حواليلهم من حديدٍ وملح. خمسمئة عامٍ لا غير سبقتُ، حتى يومنا هذا اكتشافهم لصنع السلاح من حديدِ المناجم في زول، لقد جهّزوا كلَّ أوروبا بالسلاح، وفي العام 0016 اشترت الدنماركُ ستة آلاف بندقية ممهورةً عليها الشعارُ الملكي. وبعد ذلك بوقتٍ يسيرٍ يُنتهى من صناعةٍ عشرين ألف مسدسٍ وبندقيةٍ من نوع موسكيت، لقد بدأ عصر التسلّح وزول¹ تعيشُ عصراً ذهبياً. مدينةٌ صاحبةٌ ترتفعُ في مصانعها أصواتُ المطارقِ الحديديةِ وآلاتِ الثقبِ والصقل. مدينةٌ جميلةٌ وغيّية، وفيها موسيقيون أيضاً.

تلك هي المدينةُ التي أرسلَ إليها يوهان باخ كيما يتعلّمَ حرفهَ ما، وهو ابنُ هانز باخ وأنا البكر، الذي ولد لهما في قشمار² العام 1604. وقد سجله أبوه لاحقاً باسم يوهان سيبيستيان

"وكثر ما كان أبوه يأخذه معه للأماكن الفاخرة إذا ما كان الأبُ مطلوباً فيها لخدمة ما. وقد نجح هوفمن المسؤول الموسيقي في مدينة زول القديمة في إقناع الأب بأن يرسل ابنه لكي يتعلّم حرفه ما. وهذا هو ما حدث فعلاً، حيثُ قضى الابنُ خمسَ سنواتٍ كمتدرب حرفي، وستين في الممارسة العملية للحرفة. ربّما كان يوهان باخ قد أدركَ الثالثة عشرة من عمره حين امتطى جواده خمسَ ساعاتٍ صحبةً والدهِ قاصداً المدينة حيثُ المعلمُ الحرفي كريستوف هوفمان، هناك جنوباً في غابة تورينغن، وكانَ ذلك في يومٍ ما من شهرِ آيار من العام 1618، نحنُ لا نعلمُ إن كان هذا هو ما حدثَ بالضبط ولكنَّ هذا التاريخ 23.5.1618 لن ينساه العالم .

إنَّ ما حدثَ في هذا التاريخ هو بالنسبة لأهلِ تورنغن بعيدٌ عمّا ستحكيه براغ عن هذا اليوم. لقد دافع النبلاء البروتستانتُ عن أنفسهم بشدةٍ في عاصمة بوهيميا بمواجهة الحكومة الكاثوليكية. وهي حكومةٌ احتكرتُ لنفسها كلَّ السلطات ومنعتُ على البروتستانت حق المشورة. اقتحم بعضُ النبلاء والمواطنين القلعة وطلبوا الحديث مع أربعة من مجلس المدينة القيصري، وكانت ثلثة من البروتستانت قد عرفتُ بتفصيلات خطة الكونت فون تورن، الذي لم يكن يجولُ في خاطره شيءٌ غير الاغتيال السياسي. وهذا ما حدثَ بالفعل، حيثُ رمي كلُّ من كونت القلعة ورئيس القضاة وأمين سرها من نافذةٍ مفتوحةٍ في الديوان، ليهووا من على ارتفاع سبعة عشر متراً على أرضية حجريّة، كما يعرفُ ذلك المتأمرون. لكن تلك تلك البقعة كانت في هذا اليوم مغطاة بأكوام من الروث، مما جعلَ الرجالَ الثلاثة ينجون ويهربون من دون الإصابة بأذى، لقد فرّوا بثيابهم المتسخة، تتعقبهم إطلاقاتُ الرصاص، التي أطلقتُ عليهم ولكنها أخطأتهم.

لكنَّ اراقة الدماء لم تنتظر طويلاً فقد بدأ التمرد البروتستانت في بوهيميا². رئيسُ الأساقفة وأميرُ كولونيا كان قد رأى وبذهنٍ متقدِّدٍ "إذا ما كان حقاً أنّ البوهيميين يقصدون خلع فرديناند (أخو القيصر وملك بوهيميا) واختيار ملكٍ منافسٍ، فإنّه سيكونُ من المحتمّ عليهم توقُّع حرب قد تمتد عشرين، أو ثلاثين أو أربعين سنة" وهذا هو ما حدثَ تماماً، إذ وقعت حرب أزهِقت فيها أرواح أربعة ملايين إنسان. مقاطعة تورنغن ممزقةٌ وغير متوافقة بسبب انقسامات كثيرةٍ داخل

الأسر الحاكمة. مدنٌ غنيّةٌ واقتصادٌ متنامٍ، مئاتٌ من موسيقيي البلاط والمدينة، وعازفي الأرغون، وقواد فرق الترانيم. مقاطعةٌ تمرُّ بها طرقٌ تجاريةٌ عديدةٌ ستكونُ مع حلول بداية العام 1620 منطقة عبور وإمداد لجميع فرقاء الحرب.

مدينةٌ زول التي قضى فيها يوهان باخ أوّل سبعة أعوامٍ من تلك الحرب لم يتبقَّ منها إلا أربعة وثمانون بيتاً. لكنَّ هذا لم يكن سبباً في صعوبة تطور يوهان وكذلك اخوته الأصغر، الذين أقبلوا على موسيقى المدينة. وهنا تحطّمت الهوية التاريخية للمدينة. ما تطوّر وازداد جمالاً إبان القرن السابع عشر لم تدمره لاحقاً قنابل الحلفاء، وإنّما دمرته أكاديمية العمارة لألمانيا الشرقية، حيث قامتُ بتهديم قلب المدينة القديم لصالح "إعادة التصميم طبقاً للخط الاشتراكي". لقد برزت عند جبل بيربرغ ، هذا البركان الخامد منذ 250 مليون سنة، مبانٍ مسبقة الصنع ولها اسلوبٌ قبيحٌ لا ينسجمُ وروحية قلب المدينة، فهي مبانٍ مبعثرةٌ ومجزأةٌ على مرتفعات متباينة. لقد فقدت مدينة زول منذ نهاية عهد ألمانيا الشرقية عشرين ألف مواطنٍ من سكانها، أما متوسطُ الأعمار فيها فهو خمسون عاماً، هناك بيوتٌ للعجزة أكثر من المدارس، أمّا دار الأوركسترا فقد تمَّ اغلاقها.

لكنَّ هنالك أطفالٌ ومدرسة موسيقى، قريبةٌ من وسط المدينة ولكنّها تبدو على حدودها. بناء مطلي بالأحمر بثلاثة طوابق إلى جانب (سي تي كازينو) المطلي باللون الأزرق الفاتح . ما أن دخلتُ البناية حتى قابلني رجلٌ قصيرُ القامة يحملُ على ظهره صندوقَ آلة التشيللو، أصغرُ من يوهان آنذاك، فيما تتسلَّلُ إلى المسامع من دهاليز واسعة نغمات بيانو. لم يكن أحدٌ يعلمُ بوجودي من قبل، لكنَّ السكرتيرة في المكتب الكبير، السيدة ذات البشرة الوردية والشعر الأحمر، وجدتُ الأمرَ مثيراً للاهتمام، حتى وإن بدا للوهلة الأولى قريباً من الجنون، وهو أنني أريدُ التعرفَ على المكان الذي يدرسُ فيه التلاميذ اليوم الموسيقى، بسبب طالب موسيقى يعودُ تاريخه إلى العام 1618، ثمَّ بحثتُ عمّا إذا كان هناك عزفٌ للأوركسترا، لأنَّ هذا النوع من العزف لا يمكنُ وضعه على الجدول الاعتيادي للحصص الدراسية الفردية. لا. غداً. لا بأس. ثمَّ تنصحتني بالاتصال برئيس الجوقة الموسيقية لتلك المنطقة. لكنّي أنصت قليلاً للموسيقى التي تنبعثُ من

الممرات، وهي بالرغم من ذبولها على أنها تشعرُك بشيءٍ من الأمان، الذي كان يعُمُّ ألمانيا الشرقية، حتى بعد مرور ربع قرنٍ على نهاية تلك الدولة . النغماتُ القليلةُ ذات وقعٍ عميقٍ مع أن المكان يعكسُ الصدى بقوة. حتى هنا بقيت زول مدينة صامتة.

إنها مدينة صامتة حتى في مركزها، حيث يتجمّع الناسُ حولَ شجرةٍ كستناءٍ تحتَ شمسٍ مايو ليستمعوا لعازف بيانو جرّ آتته إلى الساحة، إذ يعزفُ أحياناً معروفة ويعرضُها للبيع على شكل أقراص مضغوطة CD . الجو مرح على نحو هادئٍ وعلى مسافةٍ بضعة خطوات يجلسُ على الدرج بعضُ الشباب من جنوب أوروبا. في الظل أمام بائع النفاق المشوية يقفُ بضعة رجالٍ من ذوي الذقون غير الحليقة من مدمني شراب البيرة. في شبّاك العرض الخاص ببنك صندوق التوفير تعرضُ مجموعةٌ من صور شفق وبيوت معلنّة للبيع. يمكنُ استئجار شقة بمساحة مئة وعشرين متراً مربعاً في منطقة جيّدة بمبلغ 550 يورو، بما في ذلك مكان وقوف السيارة. قائد الجوقة الموسيقية من غير المتاح مهاتفته تحت أيّ رقمٍ من أرقامه الثلاثة، خاصته، وأنا لا أتركُ له رسالة صوتية مسجلة. أشعرُ أنّهُ من الأفضل لي أن أمضي تاركاً هذا المكان البركاني الحالم وشأنه.

في الطريق إلى سيارتي أمرُ على بيت عتيق كان فخمًا، على واجهته أطرٌ خشبية متعفنة، ويحيط به سياجٌ حديدي مقفلٌ، كُتبتَ على مدخله عبارة "بيت نهاية يوم العمل"، عبارةٌ يمكنُ قراءتها بوضوح. وبعدها يقعُ نظري على اسم موسيقي معروف. أسمٌ مكتوبٌ على واجهة بيتٍ آيل للسقوط، على درفتي نافذتين متسختين، وهو اسم جدي الذي كان في الرابعة عشرة من عمره يعزف في الجوقة الموسيقية العسكرية بقيادة والده. لم يكنُ جدي في زول على الإطلاق، إنّه تشابه في الأسماء مع شخص كان يعمل هنا منذ عشرات السنين ليس إلّا. وهنا يبدو لي جدي بعيدا كبعيد البراكين المدوية في ذلك الزمن الغابر، وصوتٍ مطارق الحدادين، ذلك الصوتُ الذي استقبلتُ به مدينة زول في العام 1618 الطالب الحرفي يوهانس باخ الذي سندعوه يوهان.

في العام 1626 "كان يتقن العزف على مجموعة كبيرة من الآلات الموسيقية" كما يتوقَّع ذلك من موسيقي المدينة، مثل المزمارة، الترمبيت، الترومبون، الباسون، والكمنجة، وكان يتقن العزف على آلة الأرغن أيضاً. وكون أنه كان يعرف استعمال المسدس، فذلك أمرٌ مفروغ منه. لقد كان، في تلك الأيام، كلُّ الأهالي من الفلاحين والعمال والحرفيين يجيدون استعمال السلاح. وهناك اشاعةٌ تفيدُ بكون موسيقار المدينة هوفمان هو أيضاً كان يتاجرُ بالأسلحة، وكانت هناك علاقة بين يوهان وعائلة من ملاك المناجم وتجار السلاح، وهي عائلة فليتنر.

ربما تعرّف يوهان في زول على الطراز الجديد من البندقية الموسكيتيه، ذلك السلاح الذي زوّدت به المدينة مطلع العام 1630 الجيش السويدي. تزنُ هذه البندقية حوالي 5 كغ ويبلغ طولها 1,40 م، وهي غير مزوّدة بشوكة ارتكاز. هذا أمرٌ يمكنُ توقعه من شخصٍ كان يكسبُ المال، وعلى امتدادِ زمنٍ طويلٍ "عند العسكرية". أعتقدُ أنّ الشابَ ذا الواحد وعشرين ربيعاً كان طويلَ القامة مثل جدّه قايت، وله وجهٌ رقيقةٌ سيماؤه، وهو متحفظ أيضاً، ولكنّه لم يكن بأيِّ حالٍ من الأحوال هسّاً. وكان مسلحاً بمسدسٍ ذي خزّانة دوّارة، حين كان في طريقه إلى قشمار بداية شهر مايو مطلع العام 1626، حيث قطع طريقه إليها ممتطياً جواده لخمس ساعاتٍ متواصلة مروراً بكهف التنين. ولقد عرّف أن الميروديين أخذوا موقعهم المركزي في أوردروف⁴ قادمين من طريق غوتا⁵، وهذا بدوره لا يعني إلاّ أمراً واحداً وهو أنّهم سيعيثون في قشمار فساداً، أي في المدينة التي لا يسعه إلا أن يأمل أن يكون والداه وإخوته ما زالوا فيها على قيد الحياة .

كتيبة القائد يوهان الثاني من ميرود فارو⁶ ذات سمعة سيئة، حتى عنده داخل صفوف الرابطة الكاثوليكية التي يقودها فالينشتاين، إذ يعتبر جنودها الناطقون باللغة الفرنسية من القساة غير اللأبهين بأحد، وهم من لوتيش ولوكسمبورغ أو ليمبورغ أو من هينجاو. ثمانية آلاف منهم – ربعهم من الفرسان – يمّونون أنفسهم من منطقة جوتا حتى تخوم غابات تورينغن. ليس هؤلاء الجنود وحسب، وإنما هناك الحاشية، والذبول، والأتباع. كومٌ من الحثالة، وكانوا حينئذ أربعة أضعاف العدد الكلي للجيش الذي يسيرون معه. هذا الكوم يتألّف من نساء الجنود

وأولادهم من مختلف الأعمار، فضلاً عن المساعدين والانتهازيين. أردورف مدينة صغيرة مزدهرة يبلغ تعداد سكانها ثلاثة آلاف من فلاحين وحرثيين، يحيطُ بها من الشمال مخيمٌ عملاق مكونٌ من عربات وخيام لما يقاربُ ستة عشر ألف إنسانٍ ماكثين في المخيم، ترفرفُ ثيابهم المغسولة والمعلّقة في رياح الصيف.

على سطح لوحة زيتية قد يبدو هذا المكان أجملَ من المنطقة التجارية التي أقيمت بعدها بعد أربعمئة سنة. ولكن يوهان باخ الذي ظل ركباً حصانه متجاوزاً المخيم يعرفُ إمكانية تمويل هذا العدد الكبير من الأشخاص. تلك هي المعلومات التاريخية المتاحة للجميع، والتي دونت في كتب التاريخ في العصور المتأخرة مثل كتاب فولكمرهايه: هذا ما ذكره عضو مجلس البلاط مطلع مايو من العام 1626 "أمام أبواب مدينة أبلين عروا سيدي المعظم فوجفينجر لودفيجن من ثيابه حتى القميص ثم سرقوا ثيابه وحذاءه. ولقد سرقوا من مدير المطبخ يوهان هاربرختن عربتين محملتين بالمتاع المنزلي وأربعةً أحصنة، ومن رئيسِ الديرِ ثلاثةً أحصنة، ومن فلاحِي أبلين سرقوا حصانين. أما من أهالي نيدرسيبرشن فقد سرقوا قطيعاً كاملاً من الخراف. وهناك رجلان فقيران من حاملي الزجاج من فولنبولن سُلبت منهما بضاعتها على مقربة من محكمة أبلين، ثم ألحقوا بالرجلين إصابات بالغةٍ أودت بحياتهما". القرى يتّم أحرقتها، النساءُ "تسبى وتختطف"، في أحد الحقول "طفلٌ صغيرٌ مسكينٌ، في حدود السادسة من عمره"، لقي حتفه رمياً بالرصاص مثلما حدث مع أمّه، أما بقية ما كتبه من أحداث عن هذه القصة، فلا يؤدُّ أحدٌ معرفته.

يوميأتُ هابس تظهرُ أنّ معاصره هانس ياكوب كريستوفل من جريملسهاوزن لم يكتب الأساطير أو المبالغات، بأيّ حالٍ من الأحوال، في كتابته للرواية التي صدرت في العام 1668 "Simplicissimus التبسيط" والتي كرّسها لتناول أحداث الحرب. "لذلك يتطلب تسلسلُ قصتي أن أسردَ لأحفادي الأحباء ما وقع من فظائع خلال حربنا الألمانية." بهذه الكلمات التي تقتربُ من الاعتذار واجهنا في بداية الفصل الرابع من الرواية. الفظائع التي يحاول تخفيف وقعها عليه

وعلى القارئ، وذلك بأن يدسّ في نسيجها مقارنات ساخرة تضاف إلى الحياة اليومية في تورينغن في الأعوام التي كان قد عاش فيها أحفاد فاليت باخ شبابهم رجالاً ونساءً.

"(...) لقد اقتحموا البيت في خضم رياح الكراهية العاصفة في الأعلى وفي الأسفل/ نعم لم تكن الغرفة السرية آمنة/ حتى وإن كانت فروة كولخيس الذهبية كامنة فيها" هذا ما كتبه جريملسهاوزن "آخرون صنعوا من قماش/ ملابس وأدوات منزلية مختلفة/ عبوات كبيرة/ كما لو أنهم يريدون انشاء سوق للخردة/ ما لم يرغبوا في أخذه معهم/ حطّموه/ كثيرون قاموا بطعن الحشيش اليابس والقش بسيوفهم/ وكانهم لم يطعنوا خرافاً وخنازير بما فيه الكفاية/ وكثيرون أفرغوا الريش من أسرة النوم/ وقاموا بتعبئتها، بدلاً عن ذلك، بشحم الخنزير/ وآخرون ملأوها باللحم المجفف/ كما لو أنهم سينامون عليها لاحقاً بشكلٍ أكثر ارتياحاً/ البعض حطّم المافيء والنوافذ كما لو أنّ صيفاً لانهائياً يتم الإعلان عنه/ حطّموا أواني ومواعين النحاس والزنك/ ثم أخذوها معهم على الرغم مما هي عليه من حال/ الأسرة/ المناضد/ الكراسي والأرائك، أحرقوها/ بما أنّ الكثير من الخشب اليابس كان موجوداً في فناء الدار/ الأوعية والصحون الكبيرة كان لابد من تحطيمها، وذلك لأنهم كانوا يفضلون أكل المشاوي/ أو لأنهم أرادوا أكل وجبة واحدة قبل مواصلة المسير/ خادمتنا تعاملوا معها بقسوة بالغة/ إلى درجة جعلتها لا تقوى على ترك المكان/ وهذا مما يوجب القول بأنه عار! الخادم ألقوه على الأرض مقيداً/ أدخلوا في فمه قطعة من الخشب، لفتحه/ وسكبوا داخل فمه إناءً من الحليب مليئاً بماء الروث (...).

وصل يوهان باخ إلى قشمار آناً، على الرغم من كون بعض الخيالة قابلوه. وطالما لم يحدث بينه وبينهم أي تبادلٍ للحديث فقد اعتقدوا أنه منهم، أما لهجة الروتفلش، والتي كان باخ قد تعلم شيئاً منها في حانات مدينة زول، فلا يجب عليه استعمالها الآن. لا وجوداً لملايس الزي الموحد في جيوش المرتزقة. علامات التعريف مثل الريش أو شارات الذراع يضعونها في المعارك وحسب. كان يرتدي زي الجنود، وهو قميص خشن، وسترة جلدية، وعباءة، وقبعة عريضة، وحذاء شتوي مطوي الحافة. يمتطي جواده ماراً بمدينة إفلشتين الصاخبة، عبر روابٍ لطالما وطأتها الأقدام، يسير يغمره الهدوء، وكما هو على الدوام متأملاً قمة برج سات فيتوس الباسق

فوق السقوف. هواء المدينة حلو المذاق كما كان قبل سبع سنوات، حين انتقل إلى مدينة زول. سرعان ما تحمل له الريح رائحة حريق. أول ما وقع عليه نظره على الجسر المؤدي إلى القرية، عند المنحنى هو هانس شتيجليتس، لكنّه لا يتعرّف عليه، يتجمّد قليلاً ثم يقفز خلف زاوية بيت ما، حتى يناديه يوهان باسمه، ويرفع عن رأسه قبعة الخادم الريفي. كان هانز قد اعتقد أنّه واحدٌ من الفالوون. نعم لقد كانوا هنا وقد عاثوا فساداً في حارة زقاق الكنيسة، وكان ثمة حريق استعرت نيرانه، وهناك أشخاص قد سقطوا ضحايا هنا، ولكن لم يكن بينهم أحدٌ من عائلة باخ. "وماذا عن ابنتك الصغيرة؟" يسأله يوهان، لأنّ أمّه كانت قد اصطحبت الصغيرة آنا في أعياد الميلاد ومراسيم التعميد. إنّها بصحة جيّدة.

"ولكنّ كبيرنا هاين، الخباز المحترف...." هانس شتيجليتس يتردّد. "لقد اختبأ في الفرن، ولكنهم عثروا عليه فحبسوه في الدّاخل ثمّ أضرموا النيران بالفرن". هاين! هاين آيسر، الذي استضاف فايت ومعه أولاده. هاين الذي سمّى أول أحفاده، والذي لم يكن قد تخطّى عامه الثاني بعد، باسم فايت تيمناً به. إنّ ما يسمعه يوهان هنا صادمٌ له إلى درجةٍ تفوق الوصف.

لم يكن له أن يحتفل بلقائه بعائلته بعد طول فراق، إلّا في حدود معيّنة، كلّ شيء غير متوفّر تقريباً، لقد أودت حوادثُ النهب الكبيرة بكلّ شيء، ولكنّ الآلات الموسيقية، هي على الأقل كلّ ما تبقى. والده هانس يساعدُ اليوم موسيقار المدينة في غوتا. وهكذا يعزفُ الأخوة الثلاثة، وينضمُّ إليهم واحدٌ من عائلة آيسر، فيصبحون أربعةً، بصرف النظر عن عدم وجود آلة اللاوته والفيرجينال يعزفون مقطوعة بعنوان "لودي موزيكي" (موسيقى مجنونة) ألفها ونشرها الملحن صموئيل شايت، الملحنّ وعازفُ الأورغ في مدينة هالة، قبل خمس سنوات. يوهان أحضر النوتة الموسيقية معه في جيب راحلته قادماً من زول. كريستوف، الذي أكمل الثالثة عشرة من عمره، هو من يقودُ عازفي الكمان، وباحترافٍ عالٍ يجعلُ يوهان على قناعةٍ بأنّه لا بد له أن يتعلّم الحرفة. هاينريش بربيعه العاشر من العمر، يعزفُ على الناي كصوت ثانٍ، فيما يتولى آيسر آلة القيولا، أمّا يوهان فيعزف على الباسون. آنا الأختُ ذات الواحد وعشرين

ربيعاً، تتحرك بلطفٍ عازفةً على البادونة، ثمّة جيران يأتون وأولادهم ليقفوا أمام بيت عائلة باخ، وكأنّ ريحاً جنوبية بعيدة تتخلل شهر ماي.

رائحة إيطاليا تنبعث في موسيقى هذه السنة، حتى عند مؤلفين موسيقيين من مثل شايت ومرشده ميشيل برتوريوس، اللذين لم يسبق لهما أن تعلّما هناك كهانيريش شوتس. في البداية سلكت موسيقى المادريجاله، والجوقة الموسيقية متعددة الأساليب طريقها إلى الشمال، أما الآن فيعتبر هذا الأسلوب من الموسيقى شيئاً محبباً، إذ تولّد منه طرازٌ موسيقيّ منفعلٌ ومجسّمٌ للمشاعر الروحية الموازية للصراع بين *prima pratica* و *seconda pratica*⁷، ثمّ بين لحنٍ متعدّدٍ متوازنٍ وآخر أحاديّ يجعل الصوت يتبع الكلمات وهذا ما أدى لنشوء الأوبرا في الجنوب في الماضي. كلُّ هذه ليست أعمالاً لشخصٍ عبقري واحد، وإنما هي نتاج لعقول عبقرية مترابطة بقوة، عقولٌ تكتب المقالات أيضاً، رسائل لا حصر لها ما انفكت تتواصل متخطية الحدود والمعتقدات. وعلى الرغم من كون كلاوديو مونتيفردي واحداً من أكبر المجددين كان قائداً للجوقة الموسيقية في كاتدرائية ماركوس في فينيسيا الكاثوليكية، ولم يكن في هذا ما يزعج ما يزعج الملحنين البروتستانت. إنهم يتعاملون مع الموسيقى بوصفها مشروعاً مشتركاً، في الوقت الذي تغزو الجيوشُ جلاً مناطق ألمانيا وتنتشر فيها الهمجية. وكان ميشيل بوتوريوس قد أنجز في وقت سابق في مدينة فولفنبوتل كتاباً في الموسيقى بعنوان *Syntagma musicum* وقع في ثلاثة مجلّدات ثقيلة، جمع فيها الوضع الحالي لتقنيات التأليف الموسيقي فضلاً عن الخبرة العلمية في مجال الأداء. وكان أكبر ثلاثة مؤلفين موسيقى في ألمانيا في ذلك الحين، وهم شاين في لايبزك، شايدت في هالة، وشوتس في درسدن، على معرفة بهذا المؤلّف. كلهم في نفس العمر تقريباً، في حدود الأربعين، وكانوا أصدقاءً أيضاً.

حين يذهب الأطفال للنوم، يكون ضوء النهار في الخارج مازال موجوداً بشكل يكفي لقراءة النوتة الموسيقية. كانوا يريدون الغناء، فتقوم الأم بإحضار نصّ من أعمال ملشيبور فرانك من البيت، "إنه أصغر من يوهان بسنة واحدة"، تعقّب بهذه الجملة على سبيل الدعابة، لأنّ هذه النوتة طبعت في نورنبيرغ العام 1603، وقد اشتملت على الكثير من ألحان رويتز القديم منها

والجديد، لم يتم تلحينها موسيقياً من قبل، ومن الطريف أنها يمكن أن تُعزف بأشكال متعددة مصحوبة بأربعة أصوات. هؤلاء خيالة آخرون غير أولئك الذين عاثوا فساداً وقتلوا في قشمار. و"الطريف" لا نعني به هنا "الفكاهي" وإنما المتطلب. فرانك رئيس الجوقة الموسيقية من كوبورج تتلمذ على يد هاسلر، أستاذه الذي علّمه ما تعلّمه في فينيسيا. يقول هاينرخ الصغير أنه تعرّف على "هذه الأغنية" بينما كان يتصفح أوراق النوتة الموسيقية، متعددة الأصوات.

يوهان يفكر ملياً عند اطلاعه عليها، بوصفها مادة جيّدة لا تناسب جو الفرحة التي خرجوا من الدار لأجلها. ولكنّه يرى جارتها مارغريت، التي كانت هنا أيضاً، تقف بعيدة نوعاً ما وتبدو كما لو أنها منحنية. هذه السيدة هي أرملة هاين آيسر. "هل تستطيع أن تغني كل هذه القطعة مع كل الكلمات؟" يسأل أخاه الأصغر. ربما ليس بإمكان أحد أن يجيد غناءها كما كان يفعل هاينرش، لأنّ تلك الكلمات التي يقرأها بعناية وهو في العاشرة من عمره، تخرج من فمه مغناة بعرب صوته بشكل غير عادي، وبقيمة موسيقية عالية. وهو يقرأ بشكل يثير الدهشة، على الرغم من كونه لا يدرك المعنى الدقيق للجملة ذات الأربعة أصوات: "برغم أنني حزينٌ وفقير/ على أن استيعابي قوي/ يغذي الأمل/ وهو ما وهبني إياه الرب/ وهو ما لا يقوى أي إنسان على أن يسلبني إياه."

عندما بلغوا النهاية بعد أربعة مقاطع "الرب يواسي كلّ القلوب الحزينة" اختفت أرملة هاين. لكنهم سمعوا وقع أقدام شخص آخر دخل المكان، خطواته الصغيرة تبتّ فيهم الرعب، لكنهم استعادوا هدوءهم من جديد، لأنّها كانت خطى هانس، الذي مشى ساعة كاملة من غوتا حتى هنا، بعد أن أنهى عمله هناك عند موسيقي المدينة. يخفي سيفه تحت معطفه خوفاً على أهله، وها هو الآن تغمره سعادة رؤية أكبر أبنائه عندهم، وهذا هو ما يتمناه المرء على كلّ حال، حيث يرى بعضهم البعض مرّة أخرى، هانس باخ البعيد النظر بعينيه الزرقاوين والمولود في بريسبورغ، ذات الأفق الأزرق، وابنه البكر من علاقة حبّه مع آنا، والتي ورث عنها ابنها يوهان شكل فماذا التموّج الجميل. وهكذا سيكتب جريملسهاوزن بعد عشرات السنين عن هؤلاء المخلصين: "ما أن مرّت مصيبة حتى تلتها أخرى".

ربّما أحضرَ الفالييون الموتَ الأسودَ معهم، وقد يكفي جردُ واحدٍ لأنْ ينقلَ الفناءَ للقريّة - في هذا الصيف دخلَ الطاعونُ جوتا مرّةً أخرى، وبعدها امتدَّ إلى قِشمار. في شهر أكتوبر يتلقَى يوهان، الذي قابلَ باربارا، البنتَ الكبرى لمعلّمه في مدينة زول، خبرَ وفاة اخته آنّا، وما أن غامر بالذهابِ إلى قِشمار في أعياد الميلاد حتى وجد أباهَ فاقداً الوعي. مرتعشاً يكتبُ القس توبفر في كتاب الكنيسة: " في 26 ديسمبر 1626 توفي الموسيقي هانس باخ، وتمّ دفنه في اليوم التالي".

مطلع شهر يونيو من السنة ذاتها ورد في تاريخ فولكمار هابس وبشكلٍ مرَكزٍ أنباءً عن إعادة انشاز القوات العسكرية وظهور مرض الزحار بعد الطاعون، ذلك النوع من الامراض المعوية الناتج عن نقص العناية الصحيّة داخل المعسكرات، والذي يمكن القول بأنّه مرض حربيّ بامتياز. لأيّ مكانٍ تنتقل القوات العسكريّة، هذا ما سجّله الديوان الملكي في نهاية شهر أغسطس: " في هذا الشهر حارب الجنرال الامبراطوري تيلي ضد ملك الدنمارك لمُدّة يومين. وقد تمكّن من اتباع الملك الدنماركي وجعلهم يفرّون في النهاية بين سيسن ولوتيرن، مخلفين وراءهم الآلاف من القتلى، وبينهم العديد من الضباط، وبما فيهم أيضاً كونت مدينة هسن، وهناك الكثيرون ممن تفرّق شملهم. وقد غنمَ تيلي أربعة وعشرين مدفعاً. إنّه لانتصار عظيم وقوي للقيصر". وقعتْ هذه المعركة عند لوتر، التي لا تقعُ بعيداً عن سالتزجتر، حالياً، وقد بدأتْ في 27 أغسطس عند الساعة الحادية عشرة، ولم تدرُ رحاها يومين، وإنما سبع ساعات وحسب. وقد أرسل لهذه المعركة واحدٌ وثلاثين ألفَ جندي، وأحدَ عشر ألفَ وخمسمائة محارب من الخيالة، قُتل منهم في هذا اليوم خمسة آلاف واحدٍ. الملك الدنماركي كرسنيان الرابع، الذي أخذ مكانه في مقدّمة البروتستانتيين من سكونيا السفلى: كان قد ارتكب خطأً في التكتيك العسكري استغلّه قائدُ الجيش تيلي، الهولندي البالغ من العمر 66 عاماً. أما القيصر فرديناند، البالغ من العمر آنذاك 38 عاماً فكان يتربّع مؤقتاً على هرم السلطة في فينا البعيدة، وكانت نظرته للأمر بانسة عاجزة. لكنّ الحال في تورنغن لا يهدأ أبداً، في الثلاثين من أغسطس يعودُ

السلب والحرائق، في غضون خمس ساعات تلتهم النيران ثمانية عشر بيتاً وتسع عشرة حظيرة.

وفي هذا الوقت كان واحداً من عائلة باخ مختلفياً، وهو ابن عم الأخوة الثلاثة من فيخمار، ولربما كان أكثر أبناء ذلك الجيل تعلقاً بالمستقبل الواعد، إنه ذو الموهبة الساطعة، الأمل الكبير، وأكبر أبناء أبيه موسيقي المدينة كاسبر. لقد غادر وعائلته جوتا في العام 1620، تاركاً الشقة، تحت السطح، العائدة للمتجر، وكان حينها في الثالثة والأربعين من العمر، رحل مع وزوجته كاترين وأطفالهم الستة، الذين تراوحت أعمارهم بين الثانية والتاسعة عشرة سنة. ذهبوا إلى بلدة أصغر بكثير تبعد خمسة وعشرين كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي. في ذلك الوقت كان يسكن مدينة آرنه ثلاثة آلاف ومائة وسبع وثمانون شخصاً على وجه الدقة، وكانت تشتمل على قصر مائي هائل شيده والد الكونت الذي كان يحكم آن ذاك، على طراز الرئيسانس. وكان كرستيان غونتر الأول، من سفارتسبورج سوندرسهاوزن يعيش ويحكم في المدينة منذ عقدين. وهو أيضاً موظف مؤرخنا فولكمار هبّه، وفي العام الذي أحضر فيه الكونت كرستيان الموسيقي كاسبر باخ إلى مدينة آرنه، ولد ابن الكونت السادس أنتون غونتر، وسوف تكون لابن الكونت هذا علاقات مع عائلة باخ.

مائة وست وأربعين درجة سلّم كان على كاسبر باخ أن يرتقيها صعوداً كيما يصل مكان عمله الجديد على ارتفاع ثلاثة وثلاثين متراً. إنه برج القصر الذي يقضي الساعات داخله، من خلال عمله داخل القصر كملاحظ للبيت، ويطلق انذار التحذير في حال نشوب الحرائق، أو وقوع أيّ اعتداء خارجي. إن من يقف اليوم هنا في هذا المكان الحقيق الصغير وعلى هذا الارتفاع يدرك باستحالة أن يكون كاسبر وعائلته المكوّنة من ثمانية أفراد قد سكنوا هنا في الأعلى "كسكان برج" كما نقرأ في كثير من كتب التاريخ. وإن من يمشي في خارج البرج متمسكاً ومصاباً بالدوار يرى محيط القصر تحت قدميه، على عمق سحيق، كنموذج بمقياس 1.20 في وسط بقايا جدارٍ عريض. لأنّ القصر المائي وقع ضحية تخطيطٍ جديد لم يكن هذه المرّة اشتراكياً: في العام 1770 تمّ تغيير مكان الإقامة، ثمّ هُدم القصرُ برمته ماعدا البرج.

وهنا في هذا المكان العالي خُذ فصلٌ دراسي نفسه بأسماء من مثل باول وفلهلم وماكس، تلك الأسماء التي انتشرت مرّة أخرى في أوائل القرن الواحد والعشرين، إذ أصبحت شيئاً من المودة. وأطلّ هؤلاء وأيضاً من الأعلى على الأسقف الحمراء لبيوت تلك المدينة الصغيرة، التي لم تتغيّر كثيراً بعكس كلّ أماكن إقامة عائلة باخ.

لم يكن كاسبر حارساً في البرج وحسب، وإنما كان عازفاً على آلة الدولسيان في هوف، وهي آلة الفاجوت في ذلك الزمان. لقد كُفّ هو وزملاءه بعزف الموسيقى في البلاط، وقد عمل معه أبناؤه أيضاً، في البداية كموسيقيين صغار: ملخيور البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، كاسبر ذو العشرين ربيعاً، وكاسبر هذا لا يبد أن يكون قد جذب نظر الكونت في ذلك الوقت. كان الكونت يستثمرُ مالاً كثيراً في مجال التعليم، وكان ذلك في حقبةٍ زمنيةٍ لم تدمر فيها بعدُ تكاليفُ الجيوشِ الزاحفة وما ترتّب عليها من خسائر فادحة ناتجة عن سرقة المواشي واتلاف الحقول الزراعية، البلاط. لقد تألفت الفرقة الموسيقية من ثلاثة عشر موسيقياً من المشاهير، وكان عددهم يزيدُ إلى الضعف عند الحاجة. وكان قائد الفرقة كريستوف كليمسه يدرسُ مع هينريش شتوتس في فينيسيا كواحدٍ من آخر تلامذة جوفاني غابريلي، ومن نتاجات كريستوف قطعةٌ موسيقيةٌ مكونة من ثمانية عشر صوتاً. كان كرستيان غونتر الأوّل يصدقُ الأموالَ على الموسيقيين المتميّزين. كان يدفع لعازف آلة اللوت كونستانتين جوبيش ثلاث مائة غولدن في السنة، وهذا المبلغ هو في الحقيقة أكبرُ مما يدفعه لقائد الفرقة الموسيقية. وتجدر الإشارة هنا الى أنّ آلة اللوت هي من أهم الآلات الموسيقية، إذا ما تعلّق الأمرُ باثراء وجبات الطعام الرئيسية، فضلاً عن ساعات المساء. وحين انتقل جوبيش في أبريل من العام 1621 للعمل في فرقة البلاط الموسيقية في بايروت، بعث الكونت بكاسبر وراءه في رحلة على جواده استغرقت من يومين إلى ثلاثة أيّام. ولم يكن لدى الكونت في بايروت مانعٌ في ذلك.

لأوّل مرّة، وعلى الطريقِ التي قطعها يوماً من الأيام الخبازُ المحترف فايت متوجهاً إلى تورنغن، يسافرُ الآن حفيدهُ ذو الواحد وعشرين ربيعاً بهيئةٍ وفخامةٍ أخرى. خيَّاطُ البلاط نيكولاس لودفيج خاطٌ له حُلّة، وتحتها سروالٌ وقميصٌ، ربّما كان ذلك اللباس هو المناسبُ

للبلاط، خاطها له من الأطلس الوردى الفاتح المهور بالحرير الأصفر من الأسفل. السترة قصيرة وضيقة ومطعمة بذيل مؤلف من قطع عديدة، ومزينة بالربطات وياقة صغيرة. الأكمام واسعة بشكل كافٍ لأن يدس الشخص تحتها القميص الأبيض المزين بالأساور المزركشة. أما السروال فلم تكن له بطانة كما كان فصاله قبل الحرب، واسع وينتهي قبل حدّ الركبة بمسافة قصيرة، ومغلقٌ بنهاية مزخرفة على شكل وردة. بعده تأتي الجوارب الحريرية ذات الأربطة الخاصة بها. وأخيراً زوج الأحذية، المصنوعة على شكل دائري من الأمام، وله كعوبٌ زاد ارتفاعها مع بداية القرن الجديد. وكثر ما كان كاسير يتشاجر مع خياطه بسبب الشعر المجعد، وبسبب اهتمامه الزائد بمظهره الخارجى. زينة الكتف المصنوعة من قماش اللينين المطوي على الطريقة الإسبانية، والشبيهة بحجر الطحن، كانت مخلوطة بالنشا الذي يجعلها صلبة كالزجاج، وموضوعة على إطار سفلي، ولكنها لم تكن تحظ بالاهتمام، فلم يزل المرء يرتدي النوعية القديمة، لكنها رخوة ومسطحة موضوعة على الكتف. كاسير مصر أن يرتدي، بالإضافة إلى ذلك، ياقة رخوة مزركشة، كتلك التي كان يرتديها قبل عشر سنوات مضت عليه، عديد من الرسامين الهولنديين، أمثال روبنس. حُلته الثانية كانت أكثر تواضعاً، إضافة إلى ذلك كانت هناك أحذية مطوية إلى الأعلى.

هوامش المترجم

1. Suhl مدينة تعتبر من أهم المدن الألمانية، وقد تم تأسيسها من قبل الرومان، ولهذه المدينة دورٌ في تاريخ ألمانيا الثقافي والسياسي. المترجم

2. مدينة Wechmar ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ الثقافي الألماني، الجميل منه والمثير على حدٍ سواء، ابتداءً من وجود منزل عائلة باخ فيها مروراً بكونها مدينة أكبر شعراء ألمانيا غوته وشيلر. المترجم

3. في العام 1618 قامت حركة معارضة للملك رودولف الثاني الذي عُين من قبل الإمبراطورية الرومانية الكاثوليكية. وقامت تلك الحركة التي كان أنصارها من البروتستانت باختيار ملكٍ بروتستانتي لبوهيميا هو فريديريك الخامس، مما أدى إلى خلافٍ بين الكاثوليك والبروتستانت أسفرت تطوراتهُ عن اندلاع حرب الثلاثين عاماً. المترجم

4. Ohrdruf إحدى أهم بلديات تورنغن. المترجم

5. Gotha من بلديات تورنغن. المترجم

6. Johann T'Serclaes von Tilly، المعروف باسم الراهب المدرع، وكان قائد القوات الكاثوليكية خلال المراحل المبكرة من حرب الأعوام الثلاثين. المترجم

7. أسلوب في التأليف الموسيقي عدّ في تلك الفترة من الأساليب الجديدة التي تزوج بين الآلات الموسيقية النفخية والوترية. المترجم